الجنّ و الملائكة فى القرآن

قديماً قالوا : « وبضدها تتميز الأشياء » . وشتان مابين « الجن » و« الملائكة » :

فالجن من النار ، والملائكة من النور ، فما الذى يجمع بين النار والنور ؟ . وذكر الجن يرعب ، وذكر الملائكة يفرح ، فما الذى يربط بين الرعب والفرح ؟

لقد عللوا لذلك بقولهم : إن الضد أقرب خطوراً بالبال عند ذكر ضده .

وإذا فرغ الإنسان من رهبة الجن قاده خياله إلى بهجة الملائكة ، فلا علينا إذا تعرضنا بالحديث للجن والملائكة معاً ، لنستبين ملامح كل من الصورتين على استقلال ، وإن جمع بينهما المجال ، ولا علينا إذا بدأنا بالجن لنخلص منهم إلى حسن الختام بالملائكة ! .

* * *

أصل المعنى اللغوى لمادة « الجن » هو ستر الشيء عن الحاسة ، ولذلك ذكر ابن فارس فى « معجم مقاييس اللغة » أن هذه المادة أصلها السَّتْر والتستر ، وكأن الجن سُمُّوا بذلك لأنهم عالم مستتر لا يراه البشر .

والجن جماعة الجن ، والجان هو الواحد منهم .

وبعض العلماء يعرِّف الجن بأنهم الأحياء العاقلة المكلفة الخفية التى لاندركها نحن البشر بحواسنا ، والأصفهانى فى « مفردات القرآن » يذكر أن لفظ « الجن » يقال على وجهين .

الوجه الأول : للأحياء الروحانية المستترة عن الحواس كلها ، وهذا يشمل الملائكة والشياطين .

الوجه الثانى : لبعض الروحانيين ، لأن الروحانيين ثلاثة أقسام : أخيار وهم الملائكة، وأشرار وهم الشياطين ، وأوساط فيهم أخيار وأشرار وهم الجن.

والقرآن الكريم يخبرنا بأن الله تعالى قد خلق الجن من النار ، فهو يقول فى سورة الحجر : « والجانَّ خلقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُوم » . (الآية ٢٧) والسموم هى الريح الحارة القاتلة ، ويقول فى سورة الرحمن : « وخَلَقَ الجانَّ منْ مارجٍ من نارٍ » (الآية ١٥) أى من لهيب متموج من النار . ويذكر النووى فى « تَهْذِيب الأسماء واللغات » أنه جاء فى صحيح مسلم هذا الحديث : « خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق الجان من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وصف لكم » .

والجن كما ذكرنا أحياء مستترة ، ولذلك لا يستطيع البشر رؤيتهم على حالتهم الأصلية التى خُلقوا عليها ، وأبصار الناس لا تستطيع أن تدرك كلَّ الموجودات ، فهى لا ترى الهواء مع أنه موجود ، ولا تستطيع أن ترى جرماً للكهرباء مع أنها موجودة ، والجن من عالم آخر غيبى غير عالم البشر . وهم يرون البشر ، والبشر لا يرون الجن ، بدليل قول الله تبارك وتعالى عن إبليس وقومه : « إنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهم » . (الأعراف الآية ٢٧) .

فإن قيل : إن الآية عن إبليس أو الشيطان ، وليس عن الجن ، قلنا :

إن إبليس يعد من الجن بدليل قول القرآن الكريم : « إلا إبْليسَ كانَ مِنَ الجنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّه » (الكهف الآية ٥٠)

وبعض العلماء يرى أنه يحتمل أن تكون « الميكروبات » الدقيقة جداً نوعاً من الجن ، ولعله لوحظ فى هذا الرأى معنى الاستتار فى الكلمة ، والميكروبات مستترة نوعاً من الاستتار ، ولكن فات هذا البعض أننا نستطيع أن نرى هذه الميكروبات تحت عدسة المجهر أو المنظار الخاص ، على حين لا يوجد بين أيدينا آلة نبصر فيها فنرى من خلفها الجن ، ولذلك لم يسترح جمهرة العلماء إلى هذا الرأى ، فردوه وفندوه .

والجن مكلَّفون بالإيمان والطاعة ، وسيحاسبهم الله على أعمالهم وسلوكهم بالطريقة التى يعلمها سبحانه ، والقرآن يقرر هذا صراحة ، ويؤكده فى أكثر من آية ، فنراه فى سورة الأنعام يقول :

« يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنْسِ ألَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقصُّون عليْكُم آياتِى ويُنْذِرُونكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُم هذا ؟ قالُوا شهِدْنا علَى أنْفُسِنا ، وغرَّتْهمُ الحياةُ الدُّنيا ، وشَهِدُوا علَى أنْفُسِهِمْ أنَّهُمْ كانُوا كافِرين . ذٰلِكَ أنْ لَمْ يَكنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرى بظُلْمٍ وأهْلُها غافِلُون . ولكلٍّ درجاتٌ ممَّا عَمِلُوا وما ربُّكَ بغافِلٍ عمَّا يَعْمَلُون » (الآيات ١٣٠ – ١٣٢) .

ويشير فى سورة الأعراف إلى أن الضالين من الجن سيذوقون - كالضالين من الإنس – عذاب جهنم ، جزاء ضلالهم وغفلتهم عن واجبهم نحو ربهم ، فيقول :

« ولقَدْ ذَرَأْنا لجهنَّمَ كثيراً مِنَ الجنِّ والإنسِ لَهُمْ قلوبٌ لا يَفْقهون بها ، ولهُمْ أعْينٌ لا يُبْصِرُونَ بها ، ولهم آذانٌ لا يسْمعُون بها ، أولئِكَ كالأنْعامِ بَلْ هُمْ أضلُّ »

ويقول فى سورة هود :

« وتَمَّتْ كلمةُ ربِّك لأمْلأنَّ جَهنَّم مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ أجْمَعِين » . (الآية ١١٩) والجنة - بكسر الجيم - هم الجن .

ويعبر القرآن تعبيراً واضحاً وضوحاً بليغاً دالا على تكليف الجن ومحاسبتهم . فيقول فى سورة الذاريات :

« وما خلقتُ الجنَّ والإنْسَ إلَّا لِيعْبُدُون ، ما أُرِيد منهُم منْ رِزقٍ وما أُرِيدُ أنْ يُطْعِمون ، إنَّ الله هُو الرزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِين » . (الآيات ٥٦- ٥٨)

* * *

وإذا كنا قد فرقنا بين الشياطين والجن ، فعرفنا أن الشياطين كلهم أشرار ، وأن الجن منهم الأشرار والأخيار ، فالقرآن الكريم يحدثنا بأن من الجن مؤمنين صالحين ، وأن منهم طائفة سمعت القرآن الكريم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى الفجر فى موطن يقال له « نخلة » ، فآمنوا به ، وأبلغوا قومهم عنه .

يقول القرآن فى سورة الأحقاف : « وإذْ صَرفْنَا إلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجنِّ يَسْتَمِعُون القُرْآن ، فلمَّا حضَرُوهُ قالُوا أنْصِتُوا فلمَّا قُضِى ولَّوْا إلَى قَوْمِهِم مُنْذِرِينَ ، قالُوا يا قَوْمَنا إنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إلَى الْحَقِّ وإلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يا قَوْمنا أجِيبُوا دَاعِىَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِنْ ذُنُوبِكُمْ ويُجِرْكُمْ منْ عَذابٍ أليمٍ . ومَنْ لا يُجِبْ دَاعِىَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الأرْضِ ولَيْسَ لهُ مِنْ دُونِهِ أوْلِياءُ أُولئِكَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ » . (الآيات من ٢٩ - ٣٢) .

بل ينزل الله تعالى سورة يسميها « سورة الجن » يفتتحها عز شأنه بقوله :

« قُلْ أُوحِىَ إلَىَّ أنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ،

يَهْدِى إلى الرُّشْدِ فآمنَّا بِهِ ولَنْ نُشْرِكَ بربِّنَا أحداً . وأنَّه تعالى جَدُّ ربِّنا ما اتَّخذَ صَاحِبةً ولا ولداً » (الآية من ١ - ٣) ، ثم يقول فيها ما يفيد أن الجن منهم صالحون ومنهم طالحون ، « وأنَّا مِنَّا الصَّالحُون ومِنَّا دُونَ ذٰلِك كُنَّا طَرَائِق قدداً » (الآية ١١) أى مذاهب متفرقة .

ثم يقول فيها مؤكداً إيمان هؤلاء المستمعين : « وأنَّا لمَّا سَمِعْنَا الهُدَى آمنَّا بِهِ فمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّه فلا يخافُ بَخْساً ولَا رَهَقاً ، وأنَّا مِنَّا المسْلِمُونَ ومِنَّا القَاسِطُونَ (الجائرون عن طريق الحقّ) فمن أسْلَمَ فأُولٰئك تَحَرَّوْا رشداً ، وأمَّا القاسِطُونَ فكانُوا لجهنَّم حَطَباً » إلخ (الآيات من ١٣ - ١٥) .

وقد روى - كما أورد النووى فى تهذيب الأسماء واللغات - أن ثواب مؤمنى الجن هو أن يجاروا من النار ، ويقال لهم : كونوا تراباً ، ولا ثواب لهم إلا النجاة من النار ، ويرى بعض العلماء أنهم كما يعاقبون بالإساءة يثابون بالإحسان : والله تعالى أعلم .

* * *

والله الذى أكرم بنى آدم بما أكرمهم به ، جعل من الجن خدماً للمختارين من عباده ، فهو سبحانه قد سخر طائفة منهم لنبيه رسول الله سليمان عليه السلام ، ويعبر عن ذلك فى سورة النمل بقوله :

« وحُشِر لسلَيْمَانَ جنودُه مِنَ الجنِّ والإنْسِ والطَّيْر فهُمْ يوزعُونَ » (الآية ١٧) : أى يوقف أوائلهم ليلحقهم أواخرهم من الكثرة .

وهذا أحد الجن الخادمين لسليمان يعرض عليه أن يحضر عرش بلقيس ملكة سبأ إليه ، قبل أن يقوم من مجلسه الذى كان يجلس للحكم والقضاء ، وكان يمتد من الصباح حتى الظهيرة. يقول القرآن عن ذلك فى سورة النمل أيضاً :

« قال يَأَيُّها الملأُ أَيُّكُمْ يأْتِينِي بعَرْشِها قَبْلَ أنْ يأْتُونِي مُسْلِمِينَ ، قال عِفْرِيتٌ مِنَ الجنِّ أنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ ، وإنِّي عليْهِ لقَوِيٌّ أمِينٌ » (الآيتان ٣٨ ، ٣٩) .

وتتنوع خدماتُ الجن لسليمان ، خاضعين لأمره بإذن ربه ، فيقول القرآن الحكيم في سورة سبأ :

« ومِنَ الجنِّ مَنْ يَعْمَلُ بيْنَ يدَيْهِ بإذْنِ رَبِّهِ ومَنْ يَزِغْ مِنْهُم عنْ أمْرِنا نُذِقْه من عَذاب السَّعِير ، يَعْمَلُونَ لَهُ ما يشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وتماثِيلَ وجِفانٍ كالْجوابِ وقُدورٍ راسِياتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكراً وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » (الآيتان ١٢ ، ١٣) .

فهم خاضعون لسليمان ، يعملون تحت طاعته بإذن الله ، ومن يتمرد من الجن ، ويعصى أمر الله له بطاعة سليمان ، يصبه عذاب الله الأليم ، فهم خاضعون لخالقهم جل جلاله ، وهم يعملون لسليمان أماكن للعبادة ، وتماثيل من نحاس وغيره ، وقدوراً كبيرة كالأحواض للطعام . والله على كل شيء قدير .

هذا ومن الخرافات التي يربطها أهل الجهل بحديث الجن في القرآن الحكيم أنهم يتعرضون لقول الله تبارك وتعالى في سورة الأنفال : « وأعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِباطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ به عَدوَّ اللهِ وعدوَّكُم وآخَرِينَ مِنْ دُونِهم لا تَعْلَمُونَهُم اللهُ يَعْلَمُهم ، وما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوفَّ إلَيْكُمْ وأنْتُم لَا تُظْلَمُون » (الآية ٦٠) . ويقولون إن الذين « لا تعلمونهم الله يعلمهم » هم الجن ، ويروون في ذلك حديثاً منكراً لا يصح إسناده ولا متنه – كما ذكر الإمام ابن كثير في التفسير ، وهذا الحديث المنكر هو : « هم الجن ، لا يخيل الشيطان إنساناً في داره فرس عتيق » .

وحسبنا هذا المقدار من الحديث عن الجن .

* * *

ويأتى الحديث عن الملائكة . . .

والملائكة جمع مَلَك - بفتح الميم واللام - وهم جنس من خلق الله تعالى ، أصحاب أجسام لطيفة نورانية ، وهم يستطيعون أن يتشكلوا فيما يشاءون من الصور ، ومنهم الرسل المبعوثون إلى الأنبياء بوحى الله تعالى ، ومنهم من ينفذ من الأمور فى هذا العالم ما يؤمر به ، ومنهم من تخصص للعبادة والتسبيح .

وقد عَرَّف السلفُ الملائكةَ بتعريف قريب مما سبق فقالوا : الملائكة أجسام لطيفة مخلوقة من النور . أُعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ، ومسكنها السموات .

وهناك تعريف يتجنب التفصيل ، ويميل إلى الإجمال ، وتسليم أمرهم لعلم الله جل جلاله ، فيقول: الملائكة جنود غائبة عنا ، لها خواص ومزايا يعلمها الله سبحانه .

ومن الآراء المهمة فى تصور الملائكة ما ذكره حجة الإسلام الإمام الغزالى ، فقد تحدث فى كتابه « إحياء علوم الدين » عن الخواطر التى تحصل فى القلب ، وأن مبدأ الأفعال هو الخواطر ، ثم يحرك الخاطر الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر منها ما يدعو إلى الشر والضرر فى العاقبة ، وهذا وسواس من الشيطان ، ومنها ما يدعو إلى الخير وما ينفع فى الآخرة ، وهذا إلهام من جهة الملائكة .

ثم قال الغزالى ما نصه :

« لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب الخاطر الداعى إلى

الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطاناً ، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً ، والذى يتهيأ به لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً ؛ فإن المعانى المختلفة تفتقر إلى أسام مختلفة .

والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضةُ الخير ، وإفادة العلم ، وكشف الحق ، والوعد بالخير ، والأمر بالمعروف ، وقد خلقه الله وسخره لذلك .

والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك ، وهو الوعد بالشر ، والأمر بالفحشاء ، والتخويف عند الهم بالخير بالفقر .

فالوسوسة فى مقابلة الإلهام ، والشيطان فى مقابلة المَلَك ، والتوفيق فى مقابلة الخذلان ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (ومن كل شىء خلقنا زوجين) فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة » .

هكذا تحدث الغزالى رضى الله عنه ، ويظهر أن الإمام محمد عبده قد تأثر بهذا الكلام ، وهذه الفكرة التى صورها حجة الإسلام ، وانتفع بها فى إبداء رأى له فى تصور الملائكة .

ويظهر أن الرأى رأيه ويدين به ، ولكنه نسبه إلى بعض المفسرين فراراً من متاعب لا يرى من الخير المجاهرة بالتعرض لها .

وهذا الرأى يتلخص فى أن الملائكة أرواح تلهم خواطر الخير ، كما أن الشياطين أرواح توسوس بخواطر الشر ، وكلٌّ من خواطر الخير وخواطر الشر محلُّه الروح ؛ فالملائكة إذن أرواح تتصل بأرواح الناس ؛ فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية ، لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا فإن اتصالها يكون عن طريق أجسامنا ، ونحن لا نحس بشىء يتصل بأبداننا ،

لا عند الوسوسة بالشر ، ولا عند الشعور بداعي الخير في النفس . فالملائكة إذن من عالم غير عالم الأجسام .

والاستناد في هذا الرأي يعود إلى حديث يقول : « إن للشيطان لمة بابن آدم (واللمة بفتح اللام هي الإلمام بالشيء والإصابة) وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » .

وهناك للحديث رواية أخرى تقول : « في القلب لمتان : لمة من الملك : إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك ، فليعلم أنه من الله سبحانه ، وليحمد الله ؛ ولمة من العدو : إيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، ونهي عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ثم تلا قوله تعالى : « الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الفقْرَ ويأْمُرُكُم بالفحشاءِ » (البقرة ٢٦٨) .

فلنر معاً كيف يشرح الأستاذ الإمام هذا الرأي بعبارته . إنه يقول :

« وذهب بعض المفسرين مذهباً آخر في فهم معنى الملائكة ، وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة ، من كونهم موكلين بالأعمال ، من إنماء نبات ، وخلقة حيوان ، وحفظ إنسان ، وغير ذلك ، فيه إيماء إلى الخاصة مما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله في البذرة ، فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان .

فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص ، تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده ، فإنما قوامه بروح إلهي سُمِّي في لسان الشرع مَلَكاً ، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية ، إذ كان لا يعرف

من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة ، أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة .

والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن فى باطن الخلقة أمراً هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن لعاقل أن ينكره ، وإن أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكاً ، وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعيًّا ، لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع ؛ فالحقيقة واحدة ، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات ، وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذى لا يؤمن بالغيب يقول : لا أعرف الروح ، ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها .

ولا يعلم إلا الله : علام يختلف الناس ؟ وكل يقرُّ بوجود شىء غير ما يرى ، ويحس ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه ؟ وماذا على هذا الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب ، وقد اعترف بما غيب عنه ، لو قال : أصدق بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدر قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحى ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون ؟ ! .

يشعر كل من فكر فى نفسه ، ووازن بين خواطره ، عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن فى نفسه تنازعاً ، كأن الأمر قد عُرض فيها على مجلس شورى ، فهذا يورد وذاك يدفع . واحد يقول : افعل ، وآخر يقول : لا تفعل ؛ حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين .

فهذا الشىء الذى أودع فى أنفسنا ، ونسميه قوة وفكراً – وهو فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكنه حقيقتها – لا يبعد أن يسميه الله تعالى

ملكاً ، أو يسمى أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس ، فكيف يُحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة ، والسلطان النافذ ، والعلم الواسع » ؟ !

هذا هو رأى الأستاذ الإمام بنوع من التفصيل ، وهو رأى لم يمر بهدوء أو سلام ، وما كان لمثله أن يفلت من المعارضة الشديدة ، لأنه يخالف ما التقى عليه جمهور السلف والعلماء ، ولأن هذا الرأى يؤدى إلى الحكم بأن الملائكة قوى لا تعقل ، ويظهر أن الأستاذ الإمام أحس بقوة المعارضة لرأيه ، فلما عاد إلى الحديث عن الملائكة حرص على وصفهم بالعقل ، كأن يقول مثلا : الملائكة خلق روحانى ، قائم بنفسه ، من عالم الغيب ، وهو خلق عاقل عالم ، يفيض العلم بإذن الله على روح النبى بما هو موضوع الدين ! .

* * *

والقرآن المجيد يرشدنا إلى أن الإيمان بالملائكة أصل للإيمان بوحى الله ورسله ، لأن وحى الله تعالى يصل إلى النبى عن طريق مَلَك من الملائكة ، وهو جبريل ، فإذا جحد الشخص وجود الملائكة فقد جحد إنزال الكتب الإلهية ، وجحد رسالة الرسل ، ولذلك قدم القرآن الكريم ذكر الإيمان بالملائكة على ذكر الإيمان بالكتب الإلهية وبالرسل ، فقال تعالى فى سورة البقرة : « آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ والمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نفرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وقالُوا : سَمِعْنَا وأَطَعْنا غُفْرَانَكَ رَبَّنا وإِلَيْكَ المَصِيرُ » . (الآية ٢٨٥)

ويقول فى سورة النساء عن الإيمان بالملائكة وعاقبة من يكفر بهم :

« وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً » . (الآية ١٣٦)

ولقد وصف العرب الملائكة بالجمال ، كما فى حديث جرير : « عليه مسحة مَلَك » أى أثر من الجمال ، وقد ضرب نسوة يوسف المثل بالمَلَك فى الجمال والبهاء : « وقُلْنَ حَاشَ للهِ ما هَذا بَشَراً إنْ هَذا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ » . (الآية ٣١)

ولكن القرآن الكريم – إلى جوار هذا – يصف الملائكة بالقوة ، فيقول فى شأن جبريل عليه السلام فى سورة النجم :

« علَّمه شَدِيدُ القُوَى ، ذُو مِرَّةٍ فاسْتَوى » (الآيتان ٥ ، ٦) .

ويصف بعضهم بالشدة والغلظة ، فيقول فى سورة التحريم :

« يَاأَيُّها الَّذِين آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وأَهْلِيكُم ناراً وقُودُها النَّاسُ والحِجارةُ عَلَيها مَلائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ويفْعَلُون ما يُؤْمَرُونَ » (الآية ٦) .

ولكن هذا الوصف لا يمنع أن يعرض علينا الملائكة فى صورة تدل على الخضوع من ناحية ، واستمداد العلم من الله من ناحية أخرى . يقول القرآن فى سورة البقرة : « وإذْ قالَ ربُّك للمَلائِكةِ إنِّى جاعلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفةً ، قالُوا أَتَجْعلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ ، ونحْنُ نسبِّحُ بحمْدِكَ ونُقدِّسُ لك ، قالَ إنِّى أَعْلَم مالاَ تَعْلَمُون . وعلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ، ثمَّ عَرَضَهُمْ علَى الملائِكةِ فقالَ أَنْبِئُونِى بأَسْماءِ هَؤُلاءِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ ما علَّمْتَنا إنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ » (الآيات ٣٠ – ٣٢) .

* * *

والملائكة كثيرون كثيرون ، « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ولقد جاء الحديث الشريف يقول : « إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ،

أطَّت السماء ، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربعة أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً » . وفى رواية : « ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف ، إلا وفيه ملك قائم ، أو ملك ساجد ، أو ملك راكع . فإذا كانوا يوم القيامة قالوا جميعاً : سبحانك ، ما عبدناك حق عبادتك ، إلا أنا لم نشرك بك شيئاً » .

فهم على حق حين قالوا عن أنفسهم كما حكى القرآن فى سورة الصافات : « وإنَّا لنَحْنُ الصَّافُّون ، وإنَّا لنَحْنُ المسبِّحونَ » . (الآيتان ١٦٦ ١٦٧) . وهم غير مقصورين على عمل واحد ، بل لهم أعمال كثيرة :

١ – تبليغ الوحى إلى الأنبياء والرسل . يقول القرآن فى سورة النحل : « يُنزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ منْ أمْرِهِ علَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أنْ أنْذِرُوا أنَّه لاَ إلهَ إلاَّ أنَا فاتَّقُون » (الآية ٢) . وفى سورة الحج : « الله يصْطَفِى مِنَ الملائِكة رسُلاً ومِنَ النَّاسِ »

٢ – التسبيح والعبادة ، يقول القرآن فى سورة الزمر : « وترَى الملائِكةَ حافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسبِّحُون بحَمْدِ ربِّهم » (الآية ٧٥) . وفى سورة الرعد : « ويسبِّح الرَّعْدُ بحَمْدِهِ والملائِكَةُ منْ خِيفتِهِ » (الآية ١٣) . وفى سورة النحل : « ولله يَسْجُد ما فى السَّمواتِ وما فِى الأرْضِ مِنْ دابَّةٍ والملائِكةُ وَهُمْ لا يَسْتكْبِرُونَ » . (الآية ٤٩) .

٣ – تثبيت المجاهدين ، يقول القرآن فى سورة الأنفال : « إذْ يُوحِى ربُّكَ إلى الملائِكةِ أنِّى مَعَكُم فثبِّتوا الَّذينَ آمنُوا . سألْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِين كَفَرُوا الرُّعْب فاضْرِبُوا فوْقَ الأعْناقِ واضْرِبُوا مِنْهُم كُلَّ بنان » (الآية ١٢) .

٤ – قبض الروح ، يقول القرآن فى سورة السجدة : « قُلْ يتوفَّاكُم مَلَكُ الموْتِ الَّذِى وُكِّلَ بكُم ، ثمَّ إلَى ربِّكُم تُرْجَعُونَ » (الآية ١١) .

٥ – الصلاة على النبى . يقول القرآن فى سورة الأحزاب : « إنَّ الله وملائِكَتَهُ يصَلُّون عَلَى النَّبِىِّ يَـأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا صلُّوا عليْهِ وسلِّموا تَسْلِيماً » . (الآية ٥٦) .

٦ - الصلاة على المسلمين . يقول تعالى فى سورة الأحزاب أيضاً : « هُو الَّذِى يُصلِّى عَلَيْكُم وملائكتُه ليخْرِجَكُم من الظُّلماتِ إلى النُّور » . (الآية ٤٣) .

٧ – التبشير بالخير. فى سورة فصلت : « إنَّ الَّذِين قالُوا ربُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنزَّلُ عليهِم الملائكةُ ألاَّ تَخافُوا ولا تحزَنُوا وأبْشِرُوا بالجَنَّةِ الَّتى كُنْتُم تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أوْلياؤُكُم فى الحَياةِ الدُّنْيا وفى الآخِرة ولكُمْ فيها مَا تشْتَهى أنْفُسُكُمْ ولَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ ، نُزُلاً مِنْ غفورٍ رَحِيمٍ » . وفى سورة القدر : « تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها بإذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أمْرٍ ، سَلامٌ هِىَ حتَّى مَطْلَعِ الفجْرِ » (الآيتان ٤ ، ٥) .

وفى صحيح البخارى جاء هذا الحديث : « إذا أحب الله العبدنادى جبريل : إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، فينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » . .

٨ – تسجيل الأعمال على العباد ، فى سورة ق : « إذْ يتَلقَّى المتَلقِّيان عَنِ اليَمِينِ وعنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ ، ما يَلْفِظُ مِنْ قولٍ إلاَّ لدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » (الآيتان ١٧ ، ١٨)-إلى غير ذلك من الأعمال والواجبات التى يسندها الله إليهم ، ويوزعها عليهم .

والملائكة أقسام وأصناف ، ومنهم قسم يسمون « بالكَروبيين » ، وهم سادة الملائكة المقربون ، وهم أقرب الملائكة إلى حملة العرش ، وكلمة

« الكروبيين » مأخوذة من مادة « الكرب » بمعنى الحزن ، لشدة خوفهم من الله جل جلاله ، وخشيتهم إياه .

وقيل إن الكلمة مأخوذة من لفظة « الكرب » بمعنى القرب أوالقوة ، وذلك لقوتهم وصبرهم على العبادة ، والشاعر أمية بن أبى الصلت يقول :

ملائكة لايفترون عبادةً كَروبية منهم ركوع وسُجَّد

ومن الكروبيين – كما فى تاج العروس – جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل .

* * *

وهناك مسألة تتعلق بالملائكة ، ويدور حولها النقاش :

هل حاربت الملائكة بالفعل مع المسلمين ؟

اختلف العلماء فى هذه المسألة ، فمنهم من قال مؤكداً : نعم قاتلوا ، فقد قال القرآن فى سورة آل عمران :

« إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ » (الآية ١٢٤) .

وقال آخرون : بل كانت مهمة الملائكةِ هى التثبيت ، بدليل قوله تعالى فى سورة الأنفال : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ، فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا » . (الآية ١٢) .

ويميل « تفسير المنار » إلى تأييد الرأى الأخير ، فيذكر أن الملائكة كانوا مكلفين بتثبيت قلوب المؤمنين والربط عليها وإلهامها روح النصر ، ويورد التفسير عبارة ابن جرير الطبرى فى الموضوع وهى :

« وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم

بثلاثة آلاف من الملائكة ، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا . لا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف ، ولا على أنهم لم يمدوا بهم .

وقد يجوز أن يكون الله أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أن الله أمدهم ، وقد يجوز أن يكون الله لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك ، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذى يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ، ولا بالخمسة الآلاف ، وغير جائز أن يقال فى ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به ، ولا خبر به فنسلم لأحد الفريقين قوله » .

ثم قال التفسير : والإمداد بالملائكة يصح أن يكون من قبيل الإمداد بالمال الذى يزيد فى قوة القوم ، وأن يكون من الإمداد بالأشخاص الذين ينتفع بهم ولو نفعاً معنوياً ، وذلك أن الملائكة أرواح تلامس النفوس ، فتمدها بالإلهامات الصالحة التى تثبتها وتقوى عزيمتها ، ولذلك قال عز وجل : « وما جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرى لَكُم ولتطمئِنَّ قلُوبكُمْ بِهِ ، وما النَّصْر إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ » . (الآية ١٢٦) .

* * *

ويبقى سؤال وارد :

أيهما أفضل : الملائكة أم البشر ؟

قيل إن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة ، لأن الله وصف الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقوله : « أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ » (البينة الآية ٧) . ولأن الحديث يقول : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » ، ولأن الله تعالى يباهى الملائكة بأهل عرفات . . . إلخ .

وقيل إن الملأ الأعلى -- وهم الملائكة -- أفضل ، وحجتهم فى ذلك وصفهم بأنهم « عبادٌ مُكْرَمُون » وأنهم « لا يَعْصُون اللهَ ما أمَرَهُم ويَفْعَلُون ما يُؤْمَرُون » (التحريم الآية ٦) .

وهناك من يستدل بقصة آدم والملائكة على أن الإنسان المستقيم خير من الملائكة .

إن القصة تقول : « وإذ قال رَبُّكَ للملائِكةِ إنِّى جاعلٌ فى الأرض خليفةً ، قالُوا أتجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّماءَ ونحنُ نُسبِّح بحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ ؟ قال إنِّى أعْلَمُ مالا تَعْلَمُون . وعلَّم آدمَ الأسْماءَ كلَّها ثُمَّ عَرَضَهُم علَى الملائِكَةِ فقَالَ أنْبِئُونى بأسْماءِ هؤلاءِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ، قالُوا سُبْحانَكَ لاعِلْمَ لَنَا إلاَّ ماعَلَّمْتَنَا إنك أنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ، قَالَ يا آدَمُ أنْبِئْهُمْ بأسْمائِهِمْ ، فلمَّا أنْبأهُمْ بأسْمائِهِم قالَ ألَمْ أقُلْ لَكُمْ إنِّى أعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَات والأرْضِ وأعْلَمُ ماتُبْدُونَ وما كُنْتُم تكْتُمونَ . وإذْ قُلْنا للملائِكةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فسَجَدُوا إلَّا إبْليس أبَى واسْتكْبَر وكانَ مِنَ الكافِرِينَ » (البقرة من ٣٠ ٣٤)

الإنسان الذى خلقه الله بيده ، وعلمه الأسماء كلها ، وأظهر سبقه لهم ، وأسجدهم له تكريماً .

هذا الإنسان فيما يرى الإنصاف أولى بالتقديم .

أما بعد ، فلابد من النص على أن حديث الملائكة لاتزال له فصول وذيول ، على الرغم من أن حديثهم فاق حديث الجن الذى نستعيذ بالله تعالى من أشرارهم : « فاللهُ خيرٌ حافظاً وهُوَ أرْحَمُ الرَّاحِمِين » (يوسف الآية ٦٤) .